

البدايات الأولى في الجزيرة

لقد شهدت حركة المدّ الثقافي في البحرين، على الدوام، انتعاشاً، بفعل حيوية النشاط الاقتصادي الذي كان يشكّل حجر الزاوية الأساس في قوة الدفع هذه، وكذلك المناخ السياسي العام. وكان طبيعياً، مع نهاية الحرب العالمية الأولى ومع رخاء الموارد من مغاصات اللؤلؤ وتجارتها، أن تولد فكرة التعليم الاهلي على أيدي هؤلاء التجار، الذين أخذت بدايات التأثير القومي، والاسلامي، من الاقطار العربية والهند تؤثر في توجهاتهم التنويرية، ممّا انعكس على نمط اختيارهم وعلاقاتهم للنهج الثقافي، والتعليمي؛ وما زيارة نماذج مفكرة، من نوعية أمين الريحاني والثعالبي والرشيد، ألا تعبيراً عن هذه الاستجابة الناهضة، اضافة الى شخصيات أخرى عديدة يذكرها، ويعرفها، التاريخ البحراني الحديث. واستجابة للتحوّل الى فكرة التعليم الاهلي، تمّ استجلاب مجموعة عربية، من أقطار مختلفة، خلال العامين ١٩١٩ و١٩٢٠، شكّلت الرعيل الاول من هيئة التدريس، وكان بينهم «المدرّس الفلسطيني» الذي واصل رحلة التعليم الطويلة في هذه الجزيرة، وكان احدى الدعائم الاساسية في النهضة التعليمية، مع شقيقه المصري والسوري وغيرهما من العرب، الذين أرسوا حجر البناء الاول للتعليم، ولأجيال عديدة حتى يومنا هذا.

فهل انحصرت وظيفة المدرّس الفلسطيني، أو غيره، داخل الفصول في تعليم أبناء البحرين مجموعة من حروف الهجاء وأرقام الحساب؟ أم قام بدور المحرّض السياسي تاريخياً، كمعبّئ وتربوي، من وراء الكواليس، لطلبة المدارس، مقدّماً خبرته الذاتية التي اكتسبها في منطقتة الوافد منها، والتي كانت أكثر تطوراً وتقدّماً في حركة مناهضة الاستعمار، وكذلك في تفاعلها مع الافكار الجديدة في العلم والمعرفة والسياسة والعلوم الانسانية. الواقع، لم ينحصر دور الفلسطيني في المجتمع البحراني بمهنة التدريس، أو الركون الى أروقة المدارس فقط، بل تعدّاه الى أكثر من ذلك، متميّزاً بخصائص نوعية في طبيعة خدماته الوظيفية، على الرغم من قلّة العدد آنذاك في الجالية الفلسطينية.

المعلّم الأول

من الصعب اعطاء رقم محدّد واحصائي عن اعداد الفلسطينيين في ثلاثينات واربعينات هذا القرن في البحرين، خصوصاً وان أول احصاء رسمي في الجزيرة أُجري في العام ١٩٤١، ولم يُشر فيه الى الجنسيات العربية. أمّا الاحصاء الثاني، والذي تمّ اجراؤه في سنة ١٩٥٠، فقد حدّد عدد الفلسطينيين بثمانية وعشرين شخصاً^(١). وبالاعتماد على فرضيات منطقية، فإن عدد الفلسطينيين، قبل ذلك التاريخ، كان أقلّ بكثير، وفي أفضل تقدير لم يتجاوز الرقم الموجود لاحقاً في فترة الاحصاء في بداية الخمسينات؛ إذ قبل ذلك التاريخ، كانت المنطقة تعاني من صعوبة المواصلات، بسبب ظروف الحرب، اضافة الى انه لم يتمّ اكتشاف النفط في البحرين إلا في العام ١٩٣٢. وهذا، بحدّ ذاته، يتطلّب فترة معيّنة لاستقطاب وجذب الأيدي العاملة الماهرة في مناحي النشاطات المختلفة. كما كانت الحياة في البحرين تخطو، لتوها، الى أمام، وبإيقاع بطيء، في ارساء البنى التحتية الجديدة المرتبطة بعلاقات رأسمالية، وتحديث دعائم بنية المجتمع. لذلك، تعرّف المجتمع أولاً على الفلسطيني كمعلّم مدرسة، وتلاها مباشرة في مهنة الطباعة كأول شخص له الفضل في تدشين الآلة الحديثة التي جلبت من بغداد. فصاحب «أول صحيفة بحرانية (١٩٣٥)»... لم يبدأ عمله في مطبعته الحديثة من فراغ.. فقد تعاقد، قبل وصول المطبعة، مع احد الخبراء الفلسطينيين، «الذي مكث يُدرّب في البحرين زهاء ستة